الفصل الثالث

نظرية التفسير التاريخى

١ - قد يكون من الأفضل لنا - بادئ ذى بدء - فى هذا الجزء من الدراسة أن نتساءل ما هو تاريخ الأدب؟ أن كلمة تاريخ توحى إلينا بلا شك بالماضى، والماضى لا يصبح تاريخياً إلا إذا فهمناه تاريخاً للإنسان وجهوده، بينما الأدب فن من فنون التعبير الإنسانى. ومادامت كلمة تاريخ تحمل معنى الماضى الإنسانى، بينما كلمة أدب تحمل معنى فن تعبيرى إنسانى، فإنه (أى تاريخ الأدب) يعنى دراسة الماضى الإنسانى كما يصوره الأدب. وقد يكون لكلا الكلمتين استعمالات أو دلالات خاصة فى مجالات نقدية أو علمية عديدة، ولكن من المؤكد أن أبسط تعريف لتاريخ الأدب، هو أن يقال أنه دراسة الماضى الإنسانى لفن الأدب. وعلى هذا الأساس نفهم أن الدارس فى هذا المجال يقوم بعملية البحث التاريخى من جهة والنقد التاريخى من جهة أخرى.

ولنحاول أن نتوقف عند بعض التعريفات المختلفة «لتاريخ الأدب» لدى جماعة من المتخصصين حتى نقف على دلالة هذا المجال وأهم خصائصه من جهة ثم ننتقل إلى معالجة مناهج بحثه من جهة أخرى. ولنبدأ أولاً بهذا التعريف الذى يقدمه لنا الناقد الإنجليزى المعروف سبيلر Spiller حيث يقول: «يعنى تاريخ الأدب أولاً وقبل كل شئ، وصف وتفسير أدب شعب من الشعوب فى لحظة تاريخية محددة»، ويضيف قائلاً: «أن تاريخ الأدب ليس تاريخ للغة، وليس تحقيقاً للنصوص، وليس نقداً أدبياً، وأن كان يحتم على مؤرخ الأدب أن يكون ملماً بأطراف هذه المجالات»، وعلى ضوء هذا القول لابد لكل دارس لتاريخ الأدب أن يحدد طبيعة الآثار الأدبية وعصرها ووسطها وعلة ظهورها، فهو - أى المؤرخ للأدب - كالمؤرخ الفكرى أو الثقافى أو الحضارى، يكتب تاريخ الإنسان على ضوء فكره أو نظامه الفكرى أو الثقافى.

إذا ما أنتقلنا إلى تعريف آخر لتاريخ الأدب، ألا وهو تعريف ديبى Duby وجدناه يقرر ببساطة أن تاريخ الأدب يعنى إجلاء الآثار الأدبية المنجزة فى الماضى، وتعريفها ووصفها وفق تسلسلها التاريخى فى سياق الزمان والمكان ويشرح لنا ديبى فى موضع آخر المقصود بهذا التعريف فيقول: «أن هذا النوع من الدراسة لتاريخ الأدب يكون وصفياً وتفسيرياً، وينهض على المفاهيم العلمية والفنية». والحق أن ديبى ينظر إلى ماضى الأدب على أنه جملة تراكمات ثابتة. هذا إلى جانب أنه ينظر إلى العناصر التى تشكل هذا الماضى باعتبارها موضوعات منعزلة رغم إطارها الزمنى الواحد.

وهنا نجد أنفسنا بإزاء تعريف آخر يقدمه «ريكور» ويبدأ هذا التعريف فيقول: «إن مفهوم تاريخ الأدب لهو مفهوم وصف الآثار الأدبية، وتفسير مصادر كل منها وأسبقيته فى تأثيره على الآثار الأدبية». وهذا الرأى، كما هو واضح، يعطى للمصادر والمؤثرات الأدبية مكاناً هاماً، دون أن يأخذ بعين الاعتبار المؤثرات الخارجية التى يتلقاها الأدب من الوسط أو العصر. وكأننا نفهم ضمنيا من هذا الرأى أن الآثار الأدبية تمر بمرحلة توالى سببى على مستوى خاص بها، دون أن يكون لمبدعها أو قارئها دوراً يذكر.

أما «سوبول» فيرى أن تاريخ الأدب يعنى بوصف الآثار الأدبية كما يعنى بتعريفها وتفسير مصادرها مستنداً فى ذلك إلى تجربة الكاتب وإلى الثقافة التى يرتبط بها من جهة والمؤسسات الإجتماعية والسياسية والأساطير الشائعة من جهة أخرى.

٢ ـ وأما فيما يتعلق بدراسة تاريخ الأدب دراسة علمية فإن ذلك يقتضى من الناقد أو الباحث أن لا ينظر إلى الوقائع الأدبية من زاوية ربطها فى نطاق العلية والمعلولية، وأن لا ينظر أيضاً إليها من زاوية ربطها باطارها الزمنى والمكانى بصورة مجردة بحيث تبدو الوقائع الأدبية فى سلسلة مترابطة. بل عليه أن يتجه إتجاها تكامليا، يفسر الوقائع الأدبية على ضوء روح العصر، دون الأقتصار على مجرد جمع الوثائق وتكديسها. فالدراسة الموضوعية للوقائع تتطلب تحليل هذه الوقائع على ضوء الظروف الإجتماعية والفردية، والمعايير الأدبية التى أحاطت بتلك الوقائع. وبالتالى لا يفسر تاريخ الأدب إلا بالإستعانة بمفاهيم النقد الأدبى،

والسوسيولوجى، والسياسى، واللغوى. . . ، على أعتبار أن الوقائع الأدبية ليست نتاجاً مباشراً لدوافع فردية صرفة بقدر ما تفسرها أسبابها التاريخية والاجتماعية التى تعد العلل الحقيقية الكامنة وراء أحداث ووقائع التاريخ الأدبى.

فليس الفرد المبدع هو محرك تاريخ الأدب، وليس تاريخ الأدب هو تاريخ الأفراد المبدعين، بقدر ما هو التاريخ الثقافى الذى يحيط به الأفراد المبدعون. فالوقائع الأدبية لا ترجع إلى الفرد المبدع وحده بل تتمخض عن حركة متعددة الجوانب، فهى تتضمن، الفرد والظروف والمواقف التى تمليها العوامل الاجتماعية، والمواقف السياسية. ولا يعنى ذلك أننا نتجه للتقليل من أهمية دور الأفراد المبدعين، والتنكر لوظائفهم التاريخية وأدوارهم الثقافية، أنما قصدنا من وراء ذلك أن نوضح أن أطار التاريخ الأدبى هو إطار إجتماعى وفردى فى وقت معاً.

وعلى هذا الأساس يستخدم الناقد التاريخى المنهج التاريخى لتفسير ووصف ماضى الظواهر الأدبية ويوضح لنا: كيف جاءت وأين ومتى ظهرت؟ فإذا طبق المنهج التاريخى للأدب دون الاستناد إلى وثائق يقينية مؤكدة، يكون الناتج حتماً بعض الافتراضات الظنية غير قابلة للتحقيق. ولكن منهج تاريخ الأدب الحق هو الذى يعتمد أصلاً على الحقائق المؤكدة والثابتة، إستناداً إلى الوثائق الأصلية التى تستخدم لاستجلاء الوقائع الأدبية. وباستخدام فرضية الانساق المتكاملة يمكن للباحث التاريخى النظر إلى الوقائع الأدبية باعتبارها عنصراً من عناصر البنيات الثقافية يلعب دوراً معيناً داخل هذه البنيات.

أن الوقائع الأدبية ليست وقائع منفصلة الواحدة عن الأخرى، وإنما هى معطاة ككل وظيفى تتصل فيه الأحداث وتترابط بعضها ببعض. وهذا المعنى يضفى على تاريخ الأدب وعلى الحقيقة التاريخية عنصراً ديناميا متغيراً، ويتخلى عن النظر إلى خصائصها الإستاتيكية الثابتة، نظراً لأن الوقائع الأدبية لا يمكن فصلها عن سياقها التاريخى والاجتماعى، أو تفسيرها بعيداً عن مواقف الحياة الثقافية. فالماضى الأدبى هو جزء لا يتجزء من الماضى الإجتماعى والتراث الثقافى، كما أن موقف الكاتب فى التاريخ الأدبى أنما يتكامل مع المواقف الإجتماعية والتاريخية، فالتاريخ الأدبى كالتاريخ العام تحكمه حركة جدلية ـ لا يمكن نزعه عن إطاره الإجتماعى أو الثقافى.

ولهذا السبب يجب على الباحث أو الناقد التاريخي ألا يقف عند حدود وصف الوقائع الأدبية فى علاقاتها المتبادلة، إنما ينبغى عليه دراسة تلك الوقائع من خلال حركتها وتغيرها والنظر إليها على أنها فى كل متماسك الأجزاء. بمعنى أن لا يصف الآثار الأدبية وتغير مصادرها دون ربطها بهذه المصادر ودون ربط هذه المصادر بالإطار الثقافى والإجتماعى بوجه عام. فلا يمكن فهم الوقائع الأدبية إلا من خلال إرتباطها بالوقائع الأخرى، حيث يتصل زمان هذه الوقائع ويستمر، ويفسر بشروط مستمدة من ماضيها، باعتبار أنها خاضعة لصيرورة معينة.

٣ ـ أما أصحاب نزعة المواقف التاريخية فيذهبون إلى القول بأنه من الواجب وصف الآثار الأدبية وتفسير مصدرها فى وضعها الخاص، أى النظر إليها على ضوء مواقف معينة. فأصحاب هذه النزعة ينظرون إلى الآثار الأدبية فى أستجابتها أو صراعاتها لموقف من المواقف فهم يعتقدون بأن هناك مواقف معينة تثير عالم الكاتب كما أن هناك أستجابات شعورية وأنماط فكرية بفضلها يستطيع الكاتب أن يواجه تلك المواقف خلال حياته الأدبية. وهذه المواقف تبدو مرتبطة بمعنى ما من المعانى بالمواقف التاريخية من ناحية، وبروح العصر وسماته من ناحية أخرى. وهذا يعنى أن تلك المواقف هى الأساس الذى يجب على الباحث أو الناقد التاريخى أن يلتفت إليها حين يقوم بوصف وتفسير الآثار الأدبية. كما يجب عليه أن يلتفت أيضاً إلى المرحلة التاريخية التى ظهرت فيها هذه الآثار. فالمواقف الأدبية هنا تعد المصادر الحقيقية للفكر والعامل الأساسى لتفسير طبيعة الوقائع الأدبية.

والوقائع الأدبية على ضوء هذه النظرية ليست إستاتيكية ثابتة، بل تبدو منبثقة من قوى دينامية تاريخية أساسها الحقيقة الأدبية. فهذه الحقيقة تختفى فيما وراء المواقف الفكرية والتاريخية.

وغاية التاريخ الأدبى على ضوء هذه النظرية هى الكشف عن الوقائع الأدبية وربط أصولها التاريخية بالمواقف الفكرية والإجتماعية. وأكتشاف الأصول التاريخية للحقائق الأدبية يتم عن طريق تتبعنا لعملية التطور التاريخى والتطور الأدبى فى نفس الوقت.

ويقرر أصحاب هذا الإتجاه أن كل عصر من العصور الأدبية إنما يخضع لأسلوب معين للفكر وتسوده بعض المظاهر والإتجاهات المحددة، حيث نشاهد فى كل عصر من عصور التاريخ نماذج معينة من الأدب، ويغلب على هذه النماذج بعض المظاهر الكلية التى تعبر عن روح العصر التاريخى.

وما يؤخذ على هذا الإتجاه أنه يخضع الوقائع الأدبية ذات الصبغة المتفردة للوقائع التاريخية العامة، ويحاول إخضاعها للقوانين العقلية العامة، وهذا المنظور يتفق مع وظيفة مؤرخ الثقافة بوجه عام ومؤرخ المعرفة بوجه خاص.

٤ ـ لو أننا أردنا الأنتقال مرة لأخرى إلى نظرية «سبيلر» فسنجد أنفسنا بإزاء مفاهيم علمية فنية لتحديد وظيفة المؤرخ الأدبى وتحديد موجهات عمله. فهذا الأخير يلتقى فى عمله مع الباحث التاريخى من جهة والناقد الأدبى من جهة أخرى، فهو يكون باحثاً تاريخياً عندما يحاول أكتشاف طبيعة بعض الوقائع الأدبية. وهنا يصبح كالباحث العلمى فى أى مجال من المجالات، عليه أن يحدد الظاهرة، موضوع بحثه، تحديداً دقيقاً وأن يشكل للظاهرة عدداً من الفروض أو التساؤلات ويحاول أن يضع لها اجابات مؤقتة قبل الشروع فى بحثه. وأن يحاول فى المرحلة التالية القيام بعملية عزل بعض الوقائع الأدبية عن مجالها بصفة مؤقتة، نظراً لأن مجال تاريخ الأدب مجال يتضمن عدد غير محدود من الأشكالات والقضايا. هذا إلى جانب أنه ملزم بالإستعانة بالأستدلال والبراهين التى يتم تحقيقها عن طريق الرجوع إلى الوقائع الأصلية (كالمخطوطات أو أوراق تصحيح الأصول، أو رسائل الأصدقاء، أو تقارير الصحف .. إلخ) والإستدلال والبراهين أما أن تكون خارجية، مصدرها الوثائق المتعلقة بحياة المؤلف الخاصة، أو متعلقة بظروف بيئته الإجتماعية والعوامل التى تحكمت فى ظهور آثاره الأدبية. وأما أن تكون داخلية مصدرها الآثار الأدبية ذاتها، كالإشارة فى توطئة المؤلف لأحداث وتاريخ معين، أو أستخدام عبارات، أو أسلوب معين يلفت انتباه المؤرخ أو الناقد التاريخى.

وهنا قد يقول قائل بأن هذه المهمة قد يستطيع القيام بها الباحث التاريخى بوجه عام فأين دور الناقد التاريخى؟ يجيب سبيلر بأنه يأتى بعد جمع البيانات وبعد تنظيم

الوقائع الأدبية تنظيماً منطقياً. ويمكن أن نعتبر محاولة تقويم البيانات التاريخية ومحاولة تقويم الآثار الأدبية مظهراً من مظاهر إتيان ذلك الدور، أما مرحلة التفسير التى تتضمن فى أساسها محاولة الإجابة على التساؤلات: كيف تمت تلك الآثار الأدبية، ولماذا ظهرت وأين نشأت، ومتى ظهرت؟ فإنها تأتى فى المرحلة الأخيرة فى عمله. وفى هذا الصدد يقرر (سبيلر) أنه من الضرورى أن ينظر إلى تلك الوقائع نظرة مجملة فينظر فى ظروف كتابتها ونشرها، والظروف التى أسهمت فى تحديد شكلها وإتجاهها، بمعنى أن لا ينظر إليها فى، عزلتها، أو يحاول نزعها من سياقها التاريخى. وعلى هذا الأساس يجب على الناقد التاريخى أن لا يفهم أية فكرة جزئية إلا من خلال سياقها العقلى الكامن فى الحقائق الأدبية التاريخية.

ويضيف سبيلر قائلاً: «وعلى الناقد التاريخى أن يحاول أختبار فرضه أو فروضه التى شكلها لبحثه، عن طريق الوثائق والبراهين التاريخية التى أعدها للبحث. وفى هذه المرحلة تصبح كتابة الناقد التاريخى شبيهة بالكتابة الأدبية التى يكون فيها الخيال محدوداً أو مقيداً.

٥ ـ وأما إذا أنتقلنا الآن إلى مفهوم التاريخ الأدبى على نحو ما يفهمه عدد من المتخصصين فى دراسة الأدب العربى، لوجدنا أن البعض منهم يأخذ إتجاهاً مضاداً لطبيعة الماضى التاريخى للأدب، وأن البعض الآخر يتعسف فى إصدار آرائه على الأدب، فلم يبدأ عمله بفرض يمكن أن يثبت فيستقر لديه، أو لا يثبت فيتخلى عنه.

أن بلاشير يرى فى كتابه المسمى «تاريخ الأدب العربى» أن منهج الوصف والتحليل هو منهج يتفق وطبيعة دراسة الأدب واللغة العربيين، ويتفق والمراحل التاريخية المتعددة التى عرفها. وفى حديثه عن الأدب قبل الإسلام وبعده، لا يتناوله إلا من ناحية تطوره الشكلى مع إشارات عابرة لبيئته الإجتماعية وظروفه التاريخية وإغفال تام لصلته بالجوانب النفسية والسياسية وغيرها. فالإتجاه العام لديه يدل على أنه يحاول أن يفسر وقائع الأدب العربى على نحو غير مترابط مع الوقائع التاريخية أو الإجتماعية أو السياسية. فهو لم يحاول أن يتفهمها على أنها أحداث ملتحمة فى سياقها التاريخى وإطارها الإجتماعى.

ولم يحاول أن يتفهم أن النظم والتيارات الثقافية السائدة فى المجتمع كفيلة بأن تمدنا بالخصائص العامة «الروح العصر»، وهذا الإتجاه نراه واضحاً فى محاضراته التى ألقاها عام ١٩٩٨ عن «الأدب العربى»، إذ هو يتقدم نحو التعرف على مظاهر أثر العنصر اللغوى على الأدب فى مرحلة ظهور الإسلام.

وبديهى أن بلاشير يحاول دراسة الأدب من حيث هو أدب، وبالتالى فإنه يحاول أن يعالج الآثار الأدبية على ضوء علاقتها بعضها ببعض. أضف إلى ذلك أن محاولة نزع الوقائع الأدبية عن مجمل سياقها التاريخ واطارها الاجتماعى لاتنفرد بها مؤلفات بلاشير فحسب بل هناك تلامذته وأتباعه الذين ساروا على دربه وتبنوا منهجه فى دراسة الأدب والحضارة الإسلامية، ومن هؤلاء شارل بلا واندريه ميكل ونداطوميش، فهؤلاء جميعاً حاولوا أن يتفهموا تاريخ الأدب العربى من حيث هو تاريخ بلا موجهات دينامية متغيرة، بل تحكمت فيه خصائص إستاتيكسة ثابتة.

فشارل بلا حاول فى دراسته المسماة "Langue et Litterature Arabe" أن يتناول قضية الأدب العربى منذ ظهور الإسلام حتى بداية العصر الحديث معتمداً فى ذلك على تتبع الجانب اللغوى خلال هذه المرحلة التاريخية وأستطاع أن يبرز مظاهر ذلك الدور فى تطور الشكل بوجه عام، وتطور الموضوعات الأدبية بوجه خاص.

وأجرى ميكل "Miquel" عدداً من البحوث على تاريخ الأدب العربى عامة، وأهتم بدراسة الحكايات العربية القديمة خاصة، وهو ينطلق فى دراسته المسماه "La Litterature Arabe" من تتبع آثار الدين على الأدب منذ بداية الإسلام حتى العصر الحديث، منطلقاً من فكرة أساسية مؤداها أن أغلب الآثار الأدبية العربية، قديمها وحديثها تعالج أساساً قضايا دينية أو متفرعة عن الدين، فهذا الأخير هو الذى أدى فى رأيه إلى خلق قطاع عريض من إنتاج الأدب، وهو الذى حدد معظم الإتجاهات الفكرية كما حدد الأذواق الأدبية.

الصلة تبدو واضحة بين آراء ميكل وشارل بلا ولا سبيل إلى الشك فيهما، ويتجلى ذلك فى هذه الثنائية التى يعقدها كل من الباحثين بين اللغة وتطور الأدب، أو تعليل الشكل بالشكل نفسه، وعلى هذا الأساس ينكران وجود صلة بين أبعاد

الحياة الاجتماعية المختلفة والأدب، معتمدين فى ذلك على المشاهدة البسيطة العابرة والاستدلال المنطقى المشوب ببعض الشائعات المنتشرة بين المستشرقين فى هذا الموضوع.

واهتمت ندا طوميش "Tomiche" بإجراء دراسة على تاريخ الأدب الروائى فى مصر منذ نشأته الأولى فى القرن ١٩ (عند رافع الطهطاوى، وعلى مبارك) حتى أخذ شكلا فنياً (عند المازنى والعقاد والحكيم وغيرهم)، وهى تعلل تطور الشكل الروائى عن طريق تطور الشكل نفسه، ومحاولة تتبع حياة المؤلف الشخصية، والأدب كمبدعه لا ينتميان لواقع إجتماعى محدد، والأحداث والعقدة الروائية سواء عند لاشين أو عند عيسى عبيد تبدو كإنعكاس لشخصية الكاتب وحده.

من خلال هذه اللمحة العابرة لهذه الأعمال يتضح لنا أننا بصدد إتجاه تأملى ثباتى ينظر للتاريخ والأدب نظرة إستاتيكية تحتم علينا أن ننظر فيه وفى آراء أصحابه لنتبين العلة فى هذه النظرة وفى اتخاذ هذه المواقف من التاريخ الأدبى العربى. وسنقتصر على مناقشة «بلا» كما يتضح فى بحثه فى «تاريخ اللغة العربية والأدب العربى» باعتباره المنهج الذى يأخذ به العديد من المستشرقين الفرنسيين فى مضمار الأدب. فما هو منهج بلا أذن؟

هو منهج تأملى ثباتى، فالباحث ينظر فى بعض المراحل التاريخية ويستنتج منها بعض الآراء أما نوع الوقائع التى ينظر إليها فذلك أمر يحدده مذهبه العام، وهو فى جوهره محاولة لتعيين أسباب تطور اللغة والأدب، ومعظمها أسباب ترجع إلى جانب واحد ألا وهو جانب الدين لا جانب النظم الإجتماعية والسياسية والدينية فى وقت معا. فهو يغفل تماماً دور هذه العوامل ويبحث فيما هو عام فى سائر الوقائع الأدبية، ليسهل له الخروج بعدد من التعميمات.

هذا الإتجاه نحو البحث عن علل الوقائع الأدبية فى الماضى الدينى هو الذى حدد لـ «بلا» تقسيمه للموضوعات التى أراد الوقوف عندها والتى أطلق عليها اسم المراحل الكبرى:

ـ مرحلة ظهور الإسلام وكانت اللغة تعتمد على الشفاهية ولا وجود للكتابة بوجه عام، أما الأدب والشعر فقد كان مزدهراً».

ـ بداية العصر العباسى ، وفيه قويت دعائم اللغة الفصحى نتيجة احتكاك الأمة الإسلامية بغيرها من الأمم الأخرى .

ـ مرحلة سقوط العباسيين وتدخل النفوذ الأجنبى ، وفيه واجهت اللغة العربية تهديداً بالتدهور .

ـ مرحلة حملة نابليون على مصر ومسايرة البلدان العربية للركب الحضارى العالمى .

ومن هذا التقسيم بدأ «بلا» بحثاً تحليلياً ثباتياً يحاول فيه بقدر الإمكان أن يبرز لنا عوامل التطور فى اللغة والأدب . فلننظر كيف يمضى فى هذا الجزء وكيف يستفيد من هذا التقسيم .

أن الفكرة العامة التى جعلته يهتم أكثر الأهتمام بالأدب واللغة هى التى توجه بحثه وتصبغه بالصبغة التحليلية الثباتية ، فهو يبحث عن العوامل المحددة لتطور الأدب . وفى رأيه أنها قد تحددت فى عنصر اللغة ، أما حاضر الأدب فليس سوى نتيجة لهذا الماضى التاريخى الدينى .

مثل هذا الحديث قد يحمل على الظن بأن «بلا» كان فى هذا البحث مثالاً لباحث ذى المنهج التجريبى الحديث ، فلديه فكرة قد وجهت ملاحظاته ، أى أننا بصدد باحث يضع فرضاً ثم يحاول اختباره عن طريق التجربة ، ولكن هذا الظن غير صحيح ، فبلا لم يبدأ بفرض ، بل بدأ فى هذا البحث بآراء واضحة لديه ، بحيث أن تقسيمه للمراحل التاريخية وأعطاء أحد العناصر منها أولوية لتفسير تطور اللغة والأدب ، لم يكن من قبيل التجريب بل كان من قبل التبرير . ومن هنا كان بحثه مليئاً بالتعسف والتعسف ميزة واضحة فى مؤلفات بلا وميكل وطوميش . فاهتمامه بالتقسيم لتلك المراحل كان منصرفاً إلى ما تكشف عنه هذه المراحل من جوانب سلبية حاول على الدوام إبرازها بين الحين والحين .

فالأدب فى المرحلة الأولى يتميز بسيادة الطابع الدينى ، ويتجلى ذلك على وجه الخصوص فى الآثار الفكرية . وقد حاول «بلا» جهد أستطاعته أن يلقى الضوء على أنماطها المتعددة .

ولا عجب فهى التى ستفسر له المراحل الأخرى . ولما كانت النظرية لديه سابقة على التجريب ، فقد تعسف فى كثير من المواضع إلى درجة لا شك أنها تقلل من القيمة العلمية لبحثه . وأبسط دليل على ذلك أنه لم يكن يقعد على القاء عدد من الفروض إذا أفتقد أحدى حلقات السلسلة التى يتابعها فى وضوح . أنظر مثلاً تفسيرة للغة والفكر العربى ، فاللغة لغة شعرية ، ويفسر ذلك بقول : «أن كلماتها توحى للقارئ بصورة غير مميزة» . بينما الفكر العربى فطرى لا يتأثر بالتغيرات التاريخية العميقة فقد بقى عدة قرون صامداً أمام كل محاولات التغيير ، ويضيف «ولا شئ يدلنا الآن أنه قد حطم عناصر الصلة بالماضى» .

لقد ألقى بعدة أفكار ، لا يهمنا فى هذا المقام الآن إذا كانت صحيحة أم لم تكن صحيحة ، فالمهم الآن أن نشير أنها لا تبدو فى شكل إحتمالات أو فروض مستوحاة من الواقع الثقافى والإجتماعى والسياسى بل أغلبها مستوحاة من تأملاته العابرة ، للغة والأدب . هذا التعسف يبدو بوضوح فى كون الباحث يقصد نحو شئ يعرفه من قبل معرفة تامة ، وهذا هو الذى دفعنا إلى القول بأن منهج «بلا» فى هذا البحث لم يكن منهجا تجريبياً ، بالمعنى الدقيق ، بل كان منهجاً تبريرياً .

من المؤكد أن «بلا» مستشرق من المستشرقين البارزين ، ومن المؤكد أيضاً أنه قد حاول أن يعالج مسألة الماضى التاريخى للأدب العربى فى ظل منهج حديث ، وهذه الحقيقة نفسها هى السبب الذى جعلنا ننظر فى منهجه . فالقضية بهذا الوضع مقبولة لدى ذوى النزعة المنهجية الحديثة ، ولكن تحقيق «بلا» لها غير مقبول لأنه ملئ بمظاهر التعسف والتعلق بآثار الإتجاهات التحليلية القديمة وما كان يسودها من نزعة آلية .

وقد أضطر منهجه إلى المضى نحو نقيض نزعته الحديثة ، فإنه لكى يرد مظاهر التغير فى الأدب التى لا تحصى إلى عدد ضئيل من العوامل ، أضطر أن يستعين بمقدار ضخم من الآليات بحيث فقد تاريخ الأدب ميزة وجوده الشخصى وسياقه الثقافى والإجتماعى ، التى هى من أهم مميزات التفسير الموضوعى لتاريخ الأدب . فإذا تساءلنا كيف كانت هذه النتيجة؟ ألفينا الاجابة فى طريقة فهمه للأدب العربى وتاريخه ، فهو يفهم تاريخ الأدب على أنه مجال يوصف ويحلل مظاهر جزئية

للتطور اللغوى والشكلى، ولكن لما كان تاريخ الأدب بعيداً عن ذلك المفهوم ولما كان «بلا» لم ينتبه لذلك، فقد سلك نحو تحقيق فكرته عن الأدب العربى وتاريخه سبيلاً أقرب ما يكون إلى دراسة التاريخ العام من زاوية ثباتية. انظر حديثه عن الثقافة العربية مثلاً، فهو يقرر أنها منغلقة ومنطوية على الاعجاب بالذات. ويفسر ذلك بأن اللغة العربية نفسها لا تترك مكاناً للمؤثرات الخارجية، ولكن ماذا تفعل الآليات التكنولوجية والأنشطة الحديثة فى الفكر وفى اللغة وفى بنية الواقع؟ يعجز «بلا» عن الإجابة فهو لا يعرف مبدأ الثبات والتغير فى التاريخ والمجتمع كما فى الأدب، وفى اللغه.

وإذا كان الأمر كذلك فقد أستحالت النزعة الحديثة لدراسة تاريخ الأدب إلى نقيضها، إلى دعوة تقليدية تحليلية، فالتاريخ الأدبى لم يعد عملية تتضمن عدة عمليات بل أصبح مجموعة من الأجزاء الإستاتيكية والأفكار التى يفرضها الباحث على التاريخ والأدب فرضاً، بحيث لم يعد التعليل ديناميا.

ولكن أين الحدود الفاصلة بالضبط بين العنصر الثقافى الدينى واللغة والأدب؟

لا يجيبنا «بلا» على ذلك. فهناك دائماً حديث عن موضوعات الشعر التى لم تتحدد، والشاعر الذى لا يملك فى وقت فراغه سوى الأنشغال بذاته.

فالمسألة إذن تعليل بعنصر ثقافى واحد، وبديهى أن التعليل بعنصر حضارى واحد لا يتفق أبداً مع النزعة المنهجية الحديثة، بل هو على الضد من ذلك يعبر عن إتجاه ثباتى فتجزئة الوقائع والظواهر الأدبية هو ذاته مضاد للدعوة الحديثة الدينامية، فضلاً عن أنه لا يتفق وتكامل الوقائع الأدبية والتاريخية. والواقع إن الإتجاه الثباتى مسيطر على «بلا» بشكل واضح، وليس أدل على ذلك من تفسير وقائع متعددة الجوانب ومعقدة التركيب من زاوية وحيدة الجانب.

يكفى هذا القدر من الأطلاع على فلسفة «بلا» الكامنة وراء أفكاره المفروضة على البحث فرضاً؟ وإذا تساءلنا من أين له هذه الفلسفة، كان لزاماً علينا أن نبحث لها عن تعليل إجتماعى وثقافى، فأما عن الأول فهو ينتمى إلى فئة مغلقة على وجودها الشخصى، وتمثل جزء من البيروقراطية الفرنسية، وأما الثانى فهو الرأى

الشائع عن مدرسة الأستشراق التقليدى منذ أواخر القرن الماضى عن تضخيم الجانب الشكلى وتجميد التاريخ ولم يزل فى أيامنا هذه أساتذة فى الجامعات الفرنسية يدرسون الأدب العربى على ضوء مفاهيم تقليدية ثابتة. فالإتجاهات الفكرية والثقافية الجديدة يشاهدونها مشاهدة عابرة، ويقفون منها موقف الإنكار وعدم الاعتراف بها ويبذلون الجهد لبقاء الستار الحديدى الذى يفصلهم عن حركة الواقع وربما يرجع ذلك إلى أن معظم الباحثين فى ذلك المجال، من ذوى النزعة الدينية الضيقة والإتجاهات الغير تطورية. فهم لا يعملون على التكيف مع الواقع الجديد، ويفضلون العزلة التى تمنحهم فرصة العيش مع الماضى ومفاهيمه التقليدية لهذا نراهم قد حصروا جهودهم فى الأدب القديم. ففى الفترة التى يعد فيها الباحث هذا العمل نجدهم يدرسون لطلبة الدكتوراه «حكايات ألف ليلة وليلة»، وغيرها من الأشكال الأدبية القديمة. أما الآداب العربية المعاصرة فينظرون إليها نظرة عابرة.

بإنتهائنا من مناقشة «بلا» نكون قد أتممنا مناقشة معظم المحاولات الحديثة لدراسة تاريخ الأدب على أسس علمية، ناقشناها من حيث المنهج ومن حيث النتائج الزائفة التى يصل إليها الباحث بالنسبة للتاريخ والأدب. ومن الجلى أن معظم هذا الزيف مرجعه النزعة التحليلية الثباتية التى تشيع عند أغلب الباحثين من المستشرقين فهم تشيع عندهم هذه النزعة وتظهر بمظاهر مختلفة لكنها جميعاً صادرة عنها، ولقد بينا خطأ الاعتماد على هذا المنهج وعجزه عن تفسير عمليات التاريخ الأدبى ووقوفه عند حدود الوصف دون التقدم إلى التعليل.

المراجـــع

- Spiller, A., literary History, in: the aims and methods of scholarship, in modern languges and literatures, London, 1960.
- Thorpe, R., Modern language association of america, New-York, 1963.
- Pellat, C., langue et litterature arabe, Paris, 1970.
- Miquel, A., la litteraturе arabe, Paris, 1969.
- Miquel, A., une conte des mille et une nits, Paris, 1979.
- Tomiche, n., L'histoire de la litterature romancque en egypte. Paris, 1981.
- Soubole, G., Histoire de la litterature, Paris, 1960.
- Lanson, G., Method de L'histoire, Paris, 1925.
- Blachir, A., Histoire de litterature arabe, Paris, 1950.